عفاف طبالة تفك شفرة "الجندر" بالتكنولوجيا

د . جيهان سلام
شاعرة وكاتبة تربوية للأطفال

لايجوز أن نصنف الإنسان بناءً على فقره أو غناه، أومدنيته أو قرويته، أو نصنفه بناءً على نوعه الجنسى، أو حسب النوع الاجتماعى الذي يطلق عليه مصطلح (الجندر) وما يتعلق به من ظلم للأنثى، ومعاناتها من التمييز لصالح الذكر فى التعليم والتربية داخل المجتمعات المهمشة والمغلقة، وقد كانت قضية (الجندر) هى الخيط الممتد فى كثيرٍ من أحداث رواية "فك شفرة" الفائزة بجائزة خليفة التربوية للكاتبة عفاف طبالة، وتجسدها الشخصية الأولى السيدة "تماضر" ذات السبعين عامًا، والتى مارست مهنة التدريس، ولم تسر على الخط التربوى الجامد والمتخلف، فحملت على عاتقها كل معانى الاجتهاد والتفرد، عبر مفاهيم تربوية صحيحة، بعيدًا عن التلقين والحفظ : كالتعلم الذاتى، والعصف الذهنى، والخرائط الذهنية، والحكى، ولعب الأدوار، والتعلم التعاونى، وكل أساليب التعلم النشِط، ومراعاة الفروق الفردية، مما أدى إلى تعرضها للاضطهاد من قِبل السلطة المدرسية التى يتبوأها ذكور يميلون إلى الجمود فى كل شىء، وقد رأوا فيها (أنثى) متمردة على الأعراف بأساليب جديدة تؤدى إلى الفوضى ـ من وجهة نظرهم ـ فانتهى بها الأمر لأن تنفى نفسها نفيًا اختياريًا، وفرحت بعزلتها فى منزلها الريفى بعيدًا عن هذه الأجواء الذكورية المتعصبة، واستراحت من صخب المدينة، وصراعاتها.

الشخصية الثانية التى جسدت فكرة التمييز ضد الأنثى وتصنيفها طبقًا لنوعها الاجتماعى (الجندر) هى الطفلة "أمينة" التى بدا للكل أنها (ساقطة قيد) فلا تملك شهادة ميلاد بعد وفاة أبيها وأمها، وقيام الأستاذة تماضر بتربيتها، فتعيش الفتاة معها تؤنس وحدتها، وتطبق معها كل الأساليب التربوية التى حُرِمت منها منذ أن تركت وظيفتها كمدرسة، وتعلمها الموسيقا، وفنون الإتيكيت، وحرصت على محو أميتها كى تكمل دراستها، حتى جاء العم الذى جسد مظاهر التمييز، والعنف الأسرى والمجتمعى تجاه الفتيات فى الريف والنجوع والكفور والعشوائيات.

انتزع العم ابنة أخيه من تماضر بالقوة؛ ليزوجها، وهى (قاصر)، هكذا جسدت الكاتبة كل الأساليب الأسرية الوحشية والتمييز ضد الأنثى فى النجوع والأماكن النائية، والتى يعتبرونها حقًا شرعيًا وعرفيًا فى "أمينة" التى هربت من عمها مستغيثة ببيت (تماضر) وهى ممزقة الثياب.

يتشابك مع الخط الدرامى الخاص بقضية (الجندر) خطوط أخرى محورية وثانوية، توطيدًا لخطين أساسين وهما: الأول صراع الأجيال، وهم الأجيال الثلاثة: الحكماء الممثلون فى تماضر والبروفيسور، والجيل الناضج الأوسط المتمثل فى الدكتورة "ليلى" تلميذة تماضر(أم الأطفال)، ثم جيل المستقبل المتمثل فى أطفال الرواية.

يبدأ الخط الدرامى الثانى الموازى لخط الظلم الاجتماعى المتمثل فى قضية الجندر، ليقوم بالتوافق بين الأجيال حينما تجمعهما الظروف فى مكان روائى وواقعى واحد، وهو منزل السيدة تماضر التى أرسلت لها تلميذتها الدكتورة "ليلى" طفليها وطفل جيرانها ليقضوا أسبوعا لديها، حتى تعود من سفرها لمهمة رسمية عاجلة، وتبدأ العلاقة بالتوجس من كل طرفٍ تجاه الطرف الآخر، ثم يبدأ صراع (الأنثروبولوجيا)، وهى الطرف الأول المتجسد فى ألوان الحياة البدائية والعادات القديمة وأبطالها هم: الأستاذة تماضر والطفلة أمينة، مع

(التكنولوجيا) وهى الطرف الثانى، وأبطالها هم: الدكتورة ليلى والأطفال الثلاثة، ويبدأ التصالح بين الطرفين من خلال البيانو والموسيقا التى اتفقوا جميعًا فى حبها، وآثار الوطن التى يحرصون جميعًا على الحفاظ عليها.

مع التكنولوجيا التى سيطرت على العالم يقوى دور الجيل الجديد المتمثل فى الأطفال، ومع الدور التربوى غير النمطى الذى تمارسه السيدة تماضر فى قيادة الأطفال، وتوجيههم، يبدأ الأطفال فى بث مفاهيم التكنولوجيا لها، وقد تجسد ذلك فى إنشائهم صفحة على الفيس بوك باسمها؛ لتستطيع التواصل مع العالم الخارجى، وكانت نقطة الحسم فى صراع تماضر بين تمسكها بالقديم وتوجسها من الحديث عندما تسلل اللصوص إلى بيتها لسرقة التمثال، واستدعى الأطفال (سرينة النجدة) من (اليوتيوب) ـ أحد وسائل التواصل الاجتماعى ـ فحين سمع اللصوص صوت سرينة النجدة فروا هاربين وصدقوا أنه صوت سرينة الشرطة، هنا سلمت العجوز تماضر بأهمية التكنولوجيا وبدأت تقتنع أنها الحل فى مواجهة كل أنواع التخلف المجتمعى، فتماضر التى رفضت أن تأخذ صورة سيلفى مع الأطفال عند قدومهم هى نفسها التى حرصت أن تأخذ صورة سيلفى معهم عند وداعهم.

فكت الكاتبة عفاف طبالة شفرة السيدة تماضر باقتناعها بالهاتف الجيد، وحسم الصراع لصالح التكنولوجيا، كما فكت شفرة أمينة بالعثور على شهادة ميلادها التى تركتها أمها فى الحقيبة قبل وفاتها، وشهادة الميلاد هنا هى المعادل الموضوعى لميلاد مجتمعٍ جديدٍ بأكمله، ولا نريد أن نقول إنها شهادة وفاة لمجتمعٍ قديم؛ لأن غصنًا أخضر رطبًا من هذا المجتمع ـ تمثله تماضر ـ سيمتد نحو المستقبل، بما يمتلكه من مفاهيم تربوية مستنيرة، ومرونة فى تلقى المعارف الجديدة، واستعدادًا للتغير للأفضل.

المنزل المعزول ـ بكل من فيه ـ يفك شفرة مفهوم الوطن الذى نجح وفرض وجوده بتعاون الأجيال، واستطاع التصدى لفخ اللصوص، والهجمات الخارجية كسارقى التمثال، والتصدى للرجعيين والجهلاء أمثال عم أمينة، واستطاع أن ينصف الأنثى المقهورة من العنف الأسرى والمجتمعى، باللوائح والقوانين والتشريعات كما حدث مع أمينة التى نجت من زواج القاصرات بشهادة ميلادها، وقانون حقوق الطفل، والبروتوكولات التى تهدف إلى تجفيف منابع الأمية، والقضاء على التمييز ضد الأنثى، وإنشاء مدارس التعليم المجتمعى للأطفال المتسربين، والفقراء فى النجوع والعشوائيات، كتعليم موازٍ للتعليم الأساسى.

تبرز القيمة التربوية لرواية (فك شفرة) من منطلق استخدام طرق تعليمية جديدة غير الحفظ والتلقين، وتشجيع التفكير الابتكارى، وتنمية المواهب، وتوجيه رسالة إلى كل الآباء والأمهات بعدم الاستهانة بآراء أطفالهم، واستخدام أسلوب الإقناع معهم، وليس فرض الأوامر التعسفية، ومراعاة الفروق الفردية فى القدرات.. كل هذا فعلته السيدة تماضر مع الطفلة أمينة، وأطفال تلميذتها (ليلى).

يحمد للكاتبة أنها لم تنس فى كثيرٍ من المشاهد فى روايتها دورها فى غرس القيم التربوية فى نفوس الأطفال، مثل قيمة التنشئة على المواطنة والحرص على الوطن، فقد قالت على لسان السيدة تماضر أنها رفضت البناء على جزءٍ كبيرٍ من الأرض الزراعية؛ لأن تجريف الأرض وتبويرها جريمة، وهنا وضحت قيمة الأرض الزراعية، والقيمة التربوية لاعتماد الإنسان على نفسه، من خلال اعتماد تماضر فى طعامها على ما تزرعه من فواكه وخضروات، وما تربى من حيوانات وطيور فقط، والقيمة التربوية لآداب الاستئذان، كما كان يفعل (البروفيسور) صديقها الذى بنى لها المنزل.

ينضم للقيم التربوية التى زينت كل صفحات الرواية قيمة التمسك بالتراث والعادات والتقاليد رغم اجتياح التكنولوجيا لعالمنا، وقد ظهر ذلك فى بعض المصطلحات والكلمات: (الطبلية) و(برج الحمام) وحواديت قبل النوم، و(جرس المنزل اليدوى بين الأشجار) و...

وإذا كان العالم كله يعيش أجواء التشتت وعدم الاستقرار، والحروب والثورات، وإذا كنا فى وطننا العربى نحارب التطرف والإرهاب الأسود الذى يحاول أن يهدم ثوابتنا التاريخية والدينية والتربوية، فمن واجب الثقافة ـ وهى القوة الناعمة ـ أن تحمل على عاتقها مواجهة الأفكارالمتطرفة والشاذة، وهذا مافعلته الكاتبة عفاف طبالة فى (فك شفرة) حين سلطت الضوء بشكلٍ غير مباشرعلى قضية فى غاية الأهمية والخطورة، وهى فتوى هؤلاء الحمقى بـ (تحريم الموسيقا) وجسدت هذا فى شخصية الأستاذة تماضر التى تعشق العزف على (البيانو) وتهتم بتعليم الموسيقا لـ "أمينة"، ومن قبلها "ليلى" ثم أطفالها وتهتم بالغناء، وقد ظهر هذا فى استماعها لصوت أمينة وتشجيعها، وهى السيدة الملتزمة خلقيًا ودينيًا.

إن كانت منظومة التربية والتعليم تراجع مستواها عامًا بعد عام وعقدًا بعد عقد، وربما يومًا بعد يوم، وأشرفت على الموت، ولم تفك نظريات التربية وأساتذتها شفرتها، فإن مثل هذه الأعمال الإبداعية التربوية لم تمت، ولن تموت، ولن تيأس.